٣ — طرائف من العصر المملوكي :

ابن الوردي والخمول

للأستاذ محمود رزق سليم

ما هي العوامل التي دفعت ابن الوردي دفعاً إلى أحضان الخمول فارتضاه لنفسه مذهباً ومعتنقاً يجد فيه لذاذة وسعادة ؟ . . إن من كان في مثل فضله وعلمه ، من حقه على الدنيا أن تنبه شأنه ، وتسمى إليه ، وترفه عنه ، وتنوه به ، وتيسر له . فهل أبلغت الدنيا ابن الوردي آماله ، وأفسحت له سبيل المال والجاه ؟ كلا .. لقد روى أنه دخل الشام مرة ، وفقره باد في رثاثة هيئته ورداءة منظره ، فحضر مجلس القاضي نجم الدين بن صصرى من جلة شهوده . فاستخفوا به وأجلسوه منهم مجلساً بعيداً : ثم أرادوا كتابة مبايعة لملك . فقال بعض الحاضرين مشيراً إلى ابن الوردي « أعطوا العرى يكتب المبايعة » ، على سبيل الاستهزاء به . فقال ابن الوردي : « أكتبه لكم نظماً أم نثراً » فزاد استهزاؤهم وقالوا « بل نظما » فأملى لساعته نظما لطيفاً ذكر فيه اسم البائع والمشترى وحدود المبيع والشهود والتاريخ وما إلى ذلك . فأقبل القوم عليه معتذرين ، وقد عرفوا مكانته .

فتكران المنزلة وضيق الرزق وقلة الجاه في مقدمة أسباب خموله .

وقد كان ابن الوردي — فضلا عن علمه وأدبه — ذا نفس أبية تربأ به عن مواطن الذل ، وتنأى به عن مهاوي الخضوع ولو حرم في سبيل ذلك ما يشتاق إليه من المجد : يقول :

وما جهلت نفسي المعالي وطيبها ... ولكن رأت أن السلامة أطيب
أصون الذي علمته عن مذلة ... فألمز في الدارين قد كنت أنتب
ورحت خفيف الظل عن حمل منة ... لمتضح بالمكر وهو محجب

ويقول :

ولو شئت فقت الكل حرصاً وجرأة ... وأرضى بجمعي وارثي وأعصب
أكثر أموالا وأحمل ثقلها ... وأتركها للوارثين وأذهب
على الله رزق الوارثين وغيرهم ... فيعدا لشخص من سوى الله يطلب

وقد كان ابن الوردي — إلى جانب ذلك كله — ذا أسرة ضخمة ، فقد ترك له أبوه جلة من الأشقاء ، ورزقه الله عدة من البنات . وهذه حالة تتطلب السعي الدائم ، والكد والمجالدة ، وبذل الحيلة . ولكن إباء نفسه لم يدع له وسيلة إلى الخضوع في سبيل الحصول على الرزق . فهو لا يحني رأساً لرئيس ، ولا يقارف عملا يتنافى مع كرامته ، ولا يبذل ماء وجهه لقاء عرض الدنيا . يقول :

رأى اكتساب الغنى بنظم وناثر ... فيه نقص لأفاضل الشهور
أنا لفظي در النحور ومثلي ... لم يبع بالحطام در النحور
إن فقر النفوس ذل وشين ... وغنى النفس عز كل فقير

ولا يسعى إلى منصب القضاء برشوة — وقد كانت ذائعة في عصره — بل عف عن المنصب جلة لما رأى فيه رقا لنفس الحر . فيقول بعد أن طلق القضاء :

أأرجع بعد العتق في الرق ثانياً ... فلا أم لي إن كان ذاك ولا أب

ولقد كان ابن الوردي — كما ذكرنا — قاضياً على حلب نائباً في قضائها عن قاضي القضاة الكمال بن الزملكاني وكان ابن الوردي قد مدحه بقصيدة طلية لأنه استنقذ كنيسة من اليهود بحلب وجعلها مدرسة للحديث . فقال له :

علا لك ذكر ليس يشبهه ذكر ... وأحرزت فخراً ليس يدركه فخر

ثم أرسل إليه ابن الزملكاني رسولا يطالعه بنقله إلى منبج . فلم يسترح إلى النقل ، وألح في العودة إلى حلب ، فلم يستمع له ابن الزملكاني . فانقلب ابن الوردي هاجياً شاكياً ، وكانت هذه الحادثة السبب المباشر في أنه كره المناصب وحياة الوظيفة ، ولجأ إلى الخمول يستعيض بالاطمئنان إليه ما فقده من جاه ورزق . قال مخاطباً ابن الزملكاني :

فمذ قال الذي قاله ... رسولكم أوضح ما أعضلا
وبان لي ما يقصد الدهر لي ... لكن رأيت الصبر لي أجملا
وانقطع البحث وزال المرا ... فقدموا الناقص والأجهلا
تالله لا باشرت من بعدها ... حكما ومن يرضى بهذا البلا

فضل ابن الوردي من ذلك الحين حياة الخمول على حياة

الكفاح . وارتضى عيش المزلة على المخالطة . ونشد السلو بين كتبه ودفاتره ، والعزاء بين أقلامه ومحابره ، وراح يرفل في ثوب من الخمول ، كأنه يرفل في ثوب من النعيم . وأمعن في خموله واستمراءه حتى أصبح حبيباً إليه أثيراً عنده . راضياً بيأسه . قال :

قالوا تركت الحكم قلت تركته ... واعتضت عن خضر القضا بالياس
قتل الأنام على الحطام نفوسهم ... فصفقت دنياهم بألف مداس

وقد استقر في نفسه أن الخمول هو نصيبه الحق من الحياة . لأنه قل أن يجتمع الحظ الحسن مع الذكاء . ويندر أن يلتئم الجاه الواسع مع البروز في العلم والأدب . فذكاء المرء محسوب عليه . وخير لطالب الجاه أن يدع سبيل العلم والأدب ويخليها لغيره . قال :

لا تحرصن على فضل ولا أدب ... فقد يضر الفتى علم وتحقيق
ولا تعد من العقال بينهم ... فإن كل قليل العقل مرزوق
والحظ أنفع من خط تزوقه ... فما يفيد قليل الحظ تزويق
والعلم يحسب من رزق الفتى وله ... بكل متسع في الفضل تضييق
أهل الفضائل والآداب قد كسدوا
والجاهلون لهم قامت لهم سوق
والناس أعداء من سارت فضائله ... وإن تعمق قالوا عنه زنديق

وقد بدا لنا من هذه الأبيات عقيدته في الحظ ، وقد رددها في أبيات متعددة فقال منها :

لي نفس تقية لم يعبها ... غير حظي وذا بغير اختياري
جامع الحظ والذكاء قليل ... يصعب الجمع بين ماء ونار

غير أن هذه العقيدة لا يصاحبها الرضا بل السخط ، ولا يخالطها الاطمئنان بل المرارة والحسرة . ألا تراه يقول :

إن لت حظي فلا ألمني ... فإن لومي له يحق
للضد رزق بلا حساب ... ولي حساب بغير رزق

ويقول :

شتان يا ابن فلان ... تماستي وسعودك
أنا يدود قزي ... وأنت قز دودك

وما دام أمر الحظ كذلك فلا داعي للسعي وليبق المرء ناعماً في خموله ، لا عمل ولا نصب ، ولا كد ولا أدب ، ولا سيما بعد أن كافح ونافح ، ودرب وجرب ، فلم يظفر من وراء ذلك بشيء : قال :

ما طلبنا الخمول جهلا ولكن ... ذاك عن خبرة وعن تجريب
لو أمنا الزحام فيه لكنا ... نشتهيه لصاحب وحبيب . . .

ويبالغ ابن الوردي فيأسف على ما فات من الزمن في غير الخمول ، كأنما فاته شيء من العز والجادة فيقول :

أسفي ! كيف كنت أطلب عزاً ... بالولايات وهي عين الهوان
كنت لا أعرف الخمول لجهلي ... ليتني كنت خاملا من زمان

وقد أطلق له خموله حرية القول وفتح أمامه لجاج الحديث . ففخر بنفسه ليدل الناس على مفاخره ، ونقد مجتمعه ليبين لأفراده ضروب الفساد فيهم ، وجأر بالشكوى مما أصابه لديه يجد فيهم سميعاً . وما كان خموله إلا شكوى صامتة واحتجاجاً سلبياً على حرمانه . فقنع ولكنها القناعة المرة . وقال :

أهملني قوم وكم فاضل ... يود أن ينظرني في المنام

ثم يقول :

قنعت والقنع يعز الفتى ... لما رأيت الحرص ذل الكرام

على أننا نعود إلى تساؤلنا ونقول : هل كان ابن الوردي خاملا ؟ وهل نال من وراء خموله ما يشتهي من الخمول الحق ؟ كلا . . . فإن بعد عن الناس ببدنه فقد قرب إليهم بفكره ، وإن اعتزلهم بجسده فقد عاشرهم بشعره . ونال من وراء انجماعه عنهم ما يكون كامناً في نفسه من أمل الشهرة والذيوع . وإن حرم الرزق والجاه . وقد مات ابن الوردي ولا يزال شعره يردد ، وذكره يجدد ، وعاش ومات في النابهين الخالدين . وكان من الشعراء القلائل الذين تركوا للناس مبادىء ومذاهب عاشوا بها ودعوا إليها .

محمود رزق سليم
مدرس بكلية اللغة العربية

(هامش) توفي ابن الوردي في عام ٧٤٩ هـ .

محمود الخفيف
يقدم قريباً
من وراء المنظار